البعد الثقافى للأزمة العربية الراهنة

"رؤية مستقبلية للتجاوز"

حسن الكحلانى(*)

مقدمـــة

نتناول فى هذا البحث أهم الأشكال الموضوعية، التى تكبل الذات الفردية فى وطننا العربى، وتعرقل سيرها التحررى والإبداعى، من خلال التهميش والإحالات الموضوعية الذى تتعرض له باستمرار.

انطلق فى هذا البحث من فرضية أساسية مفادها:

أن الشرط الأساسى والأكثر جوهرية لتحقيق الحرية والتقدم والارتقاء والنهوض للإنسان العربى، يكمن فى تحرر الذات الفردية – التى هى صانعة التاريخ والعلوم وخالقة كل ما هو عظيم ومتميز فى الحياة من كل أشكال القهر والعبودية، ولذا فإن الشعوب التى تحررت فيها الذات الفردية من الإحالة الموضوعية، هى التى أكدت وجودها وحققت التقدم والارتقاء. أما الشعوب التى لم يتحرر فيها الفرد من القيود الموضوعية– ومنها أمتنا العربية– فإنها لن تتمكن من التقدم والنهوض.

ملامـح الأزمـــة

تعانى أمتنا العربية منذ ما يقرب من سبعمائة عام من الجمود والتخلف والعجز، والتجزئة والصراعات المتجددة على السلطة. ومن سيطرة وهيمنة الأشكال التقليدية للوعى المحلى من جهة، كما تعانى من استمرار الهيمنة الاستعمارية الخارجية وتعاظم نفوذها كل يوم من جهة أخرى. لقد عاد الاستعمار من جديد ليحتل أهم وأقوى دولة عربية هى: العراق، وعاد الكيان الصهيونى ليدمر لبنان الشقيق، ويحتل أرضه ويقتل أبنائه، وتهدد سوريا، آخر قلاع المقاومة العربية.

(*). أستاذ فلسفة بجامعة صنعاء، اليمن.

تشدد القوى الاستعمارية تحالفها وحصارها على الأمة العربية، فى الوقت الذى يتآمر فيه العرب على بعضهم البعض، ويتحالفون مع القوى الاستعمارية، ضد وجودنا وحريتنا ومستقبلنا.

نعيش حالة من الاستلاب والاغتراب والتهميش للذاتية الوطنية والقومية، فى مقابل هيمنة شاملة للأشكال الموضوعية الداخلية والخارجية. ففى الداخل تهيمن قوى موضوعية متعددة، تحاصر الذات وتحكم إغلاق منافذ الأمل، والحياة أمامها؛ أو تبعية مطلقة للخارج.

ذواتنا الفردية مسلوبة الإرادة، مقهورة، متخشبة؛ تهيمن عليها أشكال متعددة من الأنماط الجماعية والموضوعية، مثل (الكيانات القبلية والطائفية والجهوية) التى تمثل المراحل السابقة لوجود الدولة، وتتعارض مع الهوية الوطنية والعربية. بالإضافة إلى طبيعة التفكير والثقافة التقليدية، التى تكبل التفكير الحر، مثل: النزعة غير العقلانية فى التفكير وفى تفسير العالم. وفكرة القدر، وطبيعة التفكير الشمولى، والنظرة الواحدية للحياة؛ التى لا تعترف بالتعدد والتنوع، والأفكار الموضوعية التى تتجاهل الإنسان وحريته وتفكيره.

تعانى امتنا العربية من أزمة شاملة؛ علمية واقتصادية ثقافية وسياسية، أزمة وجود، وأزمة تفكير؛ لأن الإنسان العربى والحكام العرب لم يعد بإمكانهم التمييز بين الأصدقاء والأعداء، ولا يمتلكون رؤية واضحة للمستقبل. تسيرهم الإشاعات والذرائع الاستعمارية.

ولكن وعلى الرغم من تفاقم الأزمة التى تعانيها أمتنا العربية ومن تنامى الهجمة الشرسة من قبل القوى الاستعمارية ضد وجودنا؛ إلا أن هناك علامات مضيئة؛ فى ليلنا المظلم، حيث حقق العرب فى تاريخنا المعاصر، لحظات انتصار حاسمة، لا يمكن الاستهانة بها؛ تؤكد الإصرار على المقاومة، وتبشر بإمكانية تحقيق التجاوز والنهوض.

وأهم علامات اليقظة العربية المعاصرة

- المنجز العربى القومى العظيم؛ الذى حققه اليمنيون فى تحقيق الوحدة اليمنية فى ٢٢مايو عام ١٩٩٠م. والتى ترافقت مع النهج الديمقراطى والتعددية السياسية. فى ظل قيادة الرئيس/ على عبد الله صالح- موحد اليمن ومؤسس الدولة اليمنية الحديثة.

– صمود المقاومة اللبنانية؛ التى حطمت حاجز الخوف، وأسطورة التفوق الصهيونى.

– صمود المقاومة العربية العراقية، التى أفشلت المخطط الاستعمارى الجديد.

– إرادة التحدى والمقاومة التى تجلت فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م والتى قادها الجيش المصرى، والجيش السورى، والتى حطمت أسطورة تفوق الجيش الصهيونى.

– صمود الشعب العربى الفلسطينى تجاه العدو الصهيونى.منذ بداية الاحتلال عام ١٩٤٨م حتى اللحظة.

ولهذه الأزمة بعدين:

١– داخلى يتمثل فى طبيعة التفكير، المتمثل فى هيمنة الثقافة التقليدية؛ التى لا تعترف بالحرية الفردية.

٢– خارجى يتمثل فى استمرار وتجدد التدخلات والمؤامرات الاستعمارية ضد أمتنا العربية.

"لم تشهد الثقافة العربية تحولات وأوضاعا محيطة تمتحن قدرتها على الصمود؛ بل بقاءها أيضا، كما تشهد ذلك اليوم،إنها تدخل قرنا جديدا وهى تحمل فى رصيدها تراكما هائلا من مكتسبات معرفية حققتها على مدار قرن من الزمن،وهى عدتها اليوم نحو العبور إلى المرحلة القادمة، لكنها تحمل معها أيضا الكثير من الأزمات؛ التى كان بعضها بفعل طوارئ خارجية، هزت توازنها وأفقدتها القدرة على المواجهة الخلاقة المبدعة ودفعتها أحيانا إلى الانكفاء على الذات. إلا إن البعض الآخر من تلك الأزمات إنما كان من صنع الثقافة العربية المحلية نفسها؛.من ترددها أحيانا ومن خوفها على قيمها من الانفتاح، ومن علاقتها المضطربة بماضيها، ومن حروب تياراتها بعضها مع بعض فى أوقات كثيرة"[١].

---

(١). محمود أمين العالم، واقع الثقافة العربية، الثقافة العربية، أسئلة التطور والمستقبل، سلسلة كتب المستقبل العربى، العدد(٢٩) ط١، ديسمبر ٢٠٠٣م، ص٧.

أولا: الأبعاد الثقافية للأزمة (البعد الداخلى)

وإذا كنا قد أوجزنا ملامح الأزمة التى تعيشها أمتنا العربية فما العوامل والأبعاد التى تقف خلفها؟

يعتقد بعض المفكرين والمثقفين العرب أن الأسباب التى تكمن خلف كل مظاهر الأزمة، والعجز والضعف والتخلف.والصراع، أنها أسباب سياسية، تتمثل فى طبيعة الأنظمة، ويعتقدون أن الديمقراطية هى الحل الأمثل. ويرى آخرون أنها عوامل اقتصادية. أو أنها عوامل خارجية استعمارية.

إلا أننى اعتقد أن ثقافتنا، وطبيعة تفكيرنا التقليدية، هى أساس وجذر مشكلات أمتنا العربية، وهى السبب الجوهرى، الذى يكمن خلف كل مظاهر الأزمة والعجز والجمود والصراع. وهى التى تحول دون النهوض والتقدم، وأرى انطلاقا من هذه الفرضية أن كل الإشكالات الأخرى، التى تتجلى فى الأبعاد السياسية أو الاقتصادية هى انعكاس لطبيعة تفكيرنا، وليس العكس.

حيث "يكاد النقاش حول الأزمة التى يمر بها المجتمع العربى يتركز، اليوم وفى كل مرة تتجلى فيها للعرب الأبعاد التاريخية والعالمية لهذه الأزمة، فى موضوع الثقافة؛ ذلك أن كل نقد للتجربة الماضية، وكل تأسيس لمشروع مستقبلى لابد أن يناقش الأسس، أى المفاهيم العقلية التى توجه العمل وتبلور معالم المبادرة والممارسة. وبما أن الثقافة تلخص تجربة المجتمع ووعيه بذاته وبمحيطه. فإنها تشكل نافذة يطل منها الباحث على كل نواحى الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية والروحية للمجتمع؛ لكونها تشكل أيضا لحمة الجماعة الأساسية بامتياز[1].

ولذا ينبغى التأكيد على هذه البديهة الأساسية: لا يمكن للتغيير أن يحصل إلا إذا تغير أولئك الذين يتصدون لعملية التغيير! كما ينبغى أن تتغير أداة التغيير الأولى التى تصيب الروح والذهن: أقصد اللغة والثقافة والوعى الخاص بالواقع والتاريخ.

وما هو الشىء الذى يمكن أن يؤدى إلى ذلك إن لم يكن الفكر الفلسفى؟ أقصد الفكر الحر غير المشروط بإكراهات مفروضة عليه بشكل مسبق من الخارج أو من فوق. من يستطيع أن ينكر أن أرضنا عطشى للفكر الحر، بعد أن طال غيابه عنها

---

(١). برهان غليون، اغتيال العقل، ط٣، ١٩٩٠م، مكتبة مدبولى، القاهرة، ص ٢١.

حتى أصبح منكرا، مهجورا، مستحيلا؟[1].

فلابد من تغيير وعى الناس قبل تغيير طبيعة حياتهم.،لأن السياسى، تحركه ثقافة معينة، فالفكر والثقافة تعد بنظرنا عاملًا حاسمًا، فى ما تعانيه أمتنا من مشكلات.

كيف يفكر الناس؟ ليس المهم تغيير الحكام أو تغيير الأنظمة، وليست الإشكالية هى الديكتاتورية، وليست الديمقراطية هى الحل، مع أن كل تلك العوامل مهمة جدًا، إلا أن تحقيقها لا يعنى إنجاز ما نصبو إليه. ولا يعنى حلا للإشكالية- أو الأزمة؛ التى تعانى منها أمتنا العربية.

فقد تغير الحكام ولم تحدث المعجزات، سواء تغيروا بالوراثة، أو عبر الثورات، أو الانقلابات العسكرية، أو بالديمقراطية أو بالموت، وقد خلف الحكام المستبدون حكامًا غير مستبدين، وقد يصل إلى السلطة حاكم عبر الانتخابات، لكن المشكلة فى نظرنا ليست فى كل ذلك، فقد حكمت شعوبنا أنظمة ملكية، ثم جمهورية، يسارية أو قومية وأصولية. إلا أن الأزمة تتفاقم، و السائد هو الصراع على السلطة، والقوى السياسية لم تتمكن من فهم الإيديولوجيات المعاصرة بل شوهتها.

السائد هو الصراع بين الفرقاء؛ من أجل السلطة، أو من أجل الماضى، ولكن ذلك الصراع لم يكن من أجل برامج وأهدافا وطنية أو قومية واضحة، لم يكن من أجل المستقبل، بل من أجل الماضى فى معظمه!! وإن رفعت الشعارات الجديدة، إلا أن الممارسة على النقيض منها؛ لأن الثقافة الكامنة فى أعماق القوى السياسية العربية، ما تزال ثقافة تقليدية.

فمشكلتنا الأساسية تكمن فى طبيعة التفكير، وفى الثقافة، والهوية، وليس فى البعد الاقتصادى أيضًا. فهناك دولا عربية تمتلك الثروة الطبيعية والمدخرات المالية، وتمتلك ما يقرب من ٦٠% من احتياطى النفط فى العالم. ولكنها لا تعرف ماذا تعمل بها، ولا كيف توظفها وتستثمرها، ولم تشكل قوة لصالح العرب فى يوم من الأيام- باستثناء لحظة الحرب العربية الإسرائيلية فى أكتوبر ١٩٧٣م- لأنها لا تمتلك رؤية واضحة للمستقبل، ولا تكمن الإشكالية فى البعد السياسى، أو فى طبيعة الأنظمة، وليس الحل

---

(١). هاشم صالح، دور الفلسفة فى بلورة المشروع الحضارى العربى- مجلة الوحدة- العدد ٦٠- سبتمبر ١٩٨٩م، المجلس القومى للثقافة العربية- الرباط- المملكة المغربية، ص ٧.

فى تغييرها أو تغيير الحكام، بل فى طريقة تفكير الحكام والإنسان العربى بشكل عام.

الثقافة إذن هى سبب إشكالاتنا الراهنة، وهى أحد أهم عوامل نهوضنا إن أدركنا مكامن القوة، و كشفنا مكامن الضعف والخطر فيها. وأحدثنا القطيعة والتجاوز. لأن الثقافة تتداخل مع الهوية، وحينما تتداخل الثقافة بالهوية، فإنها تشكل روح الأمة وعقلها. ومن هنا تأتى أهميتها وخطورتها فى المراحل القادمة.

تعد الهوية الثقافية أداة القوة والتقدم، كما أنها تشكل عاملا أساسيا فى الضعف والتفكك. ففى الهوية نحدد شخصيتنا، من نكون وماذا نريد فى المستقبل؟ وفيها نحدد طبيعة تفكيرنا ومن خلالها نضع أسس مشروعنا للمستقبل، أما السياسة وبقية الأبعاد الأخرى، فهى وسائل لتحقيق الأهداف العامة. التى يضعها فكرنا وتحددها ثقافتنا، فإن استقامت استقام كل شيء، وإن فسدت وتشوهت تشوه كل أمل وكل مشروع إلى النهوض. فأزمتنا الراهنة تكمن فى ثقافتنا وطبيعة تفكيرنا.

ثانيًا: مظاهر الأزمة الثقافية

أ- هيمنة الماضى على الحاضر.

وإذا كنا قد أكدنا على أن الثقافة أو طبيعة تفكيرنا هى العامل الجوهرى للأزمة التى نعيشها؛ فما مظاهر تلك الثقافة- ثقافة الأزمة؟

"يعانى الفكر العربى من أزمة كلية تشمل كل الأبعاد: أزمات فى فكر اللغة، وفكر التربية، وفكر الإعلام، وفكر الإبداع، والفكر الدينى، فكر القيم، وفكر معالجة التراث، والأدهى من ذلك الفقر الشديد الذى يعانى منه الفكر الفلسفى العربى، والتنظير الثقافى"[1].

"لقد استهلك الباحثون فى وصف راهن الفكر الثقافى العربى جميع مصطلحات التقاعس والسلبية؛ من تلقين وتبعية وتكرار وردة ثقافية، وعزلة معرفية وانكماش حضارى، وغيبوبة أكاديمية، وغيبة الحوار- مع الآخر- وغربة الأصالة، وإجهاض الإبداع، وفوضى الساحة الثقافية، لقد تفاقم الوضع حتى بدأ- فى نظر البعض- وكأن

---

(١). نبيل على، "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد٢٦٥، يناير ٢٠٠١م، ص١٧٩.

الفكر العربى قد فقد الرغبة فى إنتاج المعرفة"[1].

تعد ثقافتنا المعاصرة امتدادا للجانب اللاعقلانى من ثقافتنا القديمة، فلا يزال الماضى مهيمنا علينا بمشكلاته. وما يزال الإنسان العربى يصارع من أجل إشكالات الماضى والأسلاف، توقفت حركة التاريخ والزمن فى ثقافتنا، ونقلنا إشكالات الماضى إلى الحاضر.

جمدنا دور العقل والروح والإرادة المتوثبة، فحصرنا دور العقل فى تذكر ماضينا أو محاكاة الآخر، ولم نبدع فى كلا الآمرين، وجعلنا من التراث الفكرى لأمتنا حجة مقدسة؛ نعود إلية نستنطقه ونبحث فيه عن إجابات لكل ما تواجهنا من أخطار وإشكالات، وتعمق لدينا إحساس بأن كل شىء جاهز ومعد سلفا فى تراثنا، كل تساؤلاتنا الوجوديةِ المتجددة؛ قد حددت الإجابة عنها فى لحظة ما فى الماضى الذهبى، ونعتقد أن الخروج عليها يعد خروجا على الثوابت والمقدسات. كل هذا يجعلنا لا نفكر ولا نعمل العقل، هيمنت علينا ثقافة الذاكرة بدلا من ثقافة الإبداع، حتى المشكلات والصراعات السياسية والمذهبية التى ظهرت فى بعض الفترات من تاريخنا نعيد إنتاجها فى واقعنا المعاصر المتغير، والمؤسف أن نجعلها هى مشكلاتنا الراهنة، وحولها نتفق أو نختلف، ونجعل منها معيارا للخطأ والصواب، ونحكم على بعضنا ومواقفنا من خلالها.

وهنا يكمن الخطر ويسخر العالم المعاصر من طبيعة تفكيرنا؛ حين يجد أمة تستعيد إشكالات وصراعات أسلافها؛ وكأنها لا تعيش فى القرن الواحد والعشرين! بل تعيش بثقافة وتفكير ينتمى إلى مئات القرون! وكأننا لا نملك هموما ولا أهدافا جديدة للحياة؛ متجاهلين التحولات التى مر بها الإنسان والعالم من حولنا! غير مدركين للأخطار والمؤامرات التى تديرها القوى الاستعمارية ضد وجودنا باعتبارنا أمة تمتلك كل مقومات التوحد والنهوض والقوة. وتمتلك تاريخا زاخرا بالمآثر. ولكنها الآن أمة حيرى لا تعرف ماذا تريد!! إن معاركنا الراهنة تتم إما من أجل الماضى؛ أو دفاعا عن الأعداء، نخوض حروبا بالوكالة: كما حدث أن قاتلنا فى أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك، والفلبين، لصالح الإستراتيجية الأمريكية، ولكننا لم نقاتل فى لبنان و العراق أو فلسطين، ضد أعداء امتنا العربية!!

---

(١). نبيل على، "الثقافة العربية وعصر المعلومات"، مصدر سابق، ص ١٨٠.

لقد مول العرب الحرب فى أفغانستان بالمال والرجال. فقد بلغ ما دفعته بعض الأنظمة العربية للحرب فى أفغانستان ما يزيد عن عشرين مليار دولار. ولم تدفع دولارا واحدا للمجهود العسكرى للمقاومة اللبنانية أو الفلسطينية، أو السورية، لكنها يمكن أن تقدم دعما للموتى والقتلى العرب، فقط!!

ب- التناقض الفكرى فى ثقافتنا العربية.

إن هيمنة ثقافة الذاكرة على تفكيرنا، يؤدى إلى نتائج غاية فى الخطورة أهمها: عدم القدرة على فهم طبيعة عصرنا وعدم القدرة على خلق ثقافة جديدة والعجز على استيعاب العلوم الحديثة.

حيث يتميز واقعنا الثقافى والفكرى بتجاور مجموعه من التناقضات التى ينفى الواحد منها الآخر؛ وتكاد تسيطر على حياتنا العملية والفكرية معا. وهذا التناقض يخلق لدى الإنسان العربى شخصية غير متوازنة قلقة ومتوترة، ليس لها هدف محدد للحياة، ولا رؤية واحدة توحد نفسية الفرد وعقليته:حيث يتلقى قيما متعارضة فى المنزل، والمدرسة، والعمل. فالإعلام يتناقض مع المدرسة، والخطاب الدينى يتناقض مع خطاب المؤسسات التعليمية، والسياسية للدولة ومع ثقافة العصر.

هذا التناقض فى السلوك والتفكير والتلقى، يخلق كما أسلفنا شخصية غير متوازنة، لا تعرف من تكون ولا ماذا تريد، ولا يمكن أن تكون مبدعة أو فاعلة اجتماعيا، ووطنيًا وعربيا؛ لأنها تفتقد إلى رؤية عامة وواضحة للمستقبل. "فهناك أزمة تهدد هويتنا الثقافية وسمات هذه الأزمة تكمن فى: تشظى الشخصية الوطنية والقومية، نتيجة لصراع بين ثقافتين هما: القديم والجديد، الولاء للكيانات القديمة، والولاء للكيان الوطنى والقومى، التناقض بين الفكر العلمى والفكر الخرافى والأسطورى. وبين القيم القدرية وقيم الإرادة الإنسانية، بين القيم السلفية والقيم المستقبلية، بين قيم العقل وقيم القلب، وبين قيم الانغلاق وقيم الانفتاح، القيم الجماعية والقيم الفردية، قيم الطاعة وقيم التمرد. فالثقافة العربية تتمحور حول قوى متناقضة، والثابت فيها هو الصراع نفسه"[1]. ولذا "فإن الثقافة العربية تعد ثقافة غيبية غير تجريبية(أو واقعية) والعقل

---

(١). على وطفه، "الثقافة وأزمة القيم فى الوطن العربى"، سلسلة كتب المستقبل العربى، مركز دارسات الوحدة العربية، بيروت (العدد ٢٩)، ديسمبر٢٠٠٣م، ص٧.

العربى تختلط فيه المفاهيم المتقابلة، فلا يكاد يفصل فصلًا قاطعًا بين ما هو دينى وما هو علمانى، أو بين الطبيعى والإعجازى، أو بين المادى والروحانى، أو بين الدين والسحر والعلم، وغير ذلك من المتقابلات"[1]. "يتميز العقل العربى- الراهن- بالجمود والحيرة والتردد، نتيجة لسيطرة التناقضات الفكرية عليه، وهى ذات مصدرين: ثقافة محلية تقليدية،تكبل حركته الإبداعية، أو ثقافة الآخر المتجددة التى لم يتمكن من فهمها أو الإضافة إليها".

"فالعقل العربى فى راهنه عقل حائر بين إرث ماضيه ومطالب حاضره، وتحديات مستقبله.عقل تشوهت رؤاه- وتفككت- عدته المعرفية، فراح يجتر مقولاته القديمة، ويردد مقولات غيره، وما أندر ما يستوعبها، وهو يرزح منذ أمد طويل تحت نير التبعية بجميع صنوفها: الفكرية والعلمية والتعليمية والإعلامية والتكنولوجية. وقد ارتضى أن يوكل حل مشاكله إلى غيره؛ فأوكل مشاريع تنميته لمقاولى الخارج تسلم له جاهزة، وأوكل نصوصه المحورية إلى المستشرقين ترد له جاهزة، مبوبة ومؤولة، ممزوجة بأهوائهم وأفكارهم عن تاريخنا وتراثنا وسلوكنا".

خلاصة القول: أن العقل العربى- فى غالبيته- إما أنه صنيعة سلفه، أوصنيعة غيره[2]. فالعقل العربى عاجز عن إنتاج المعرفة، تهيمن على حركته التناقضات.

ويمكن إيجاز تلك التناقضات التى تشكل خطرا على ثقافتنا الوطنية والعربية على النحو الآتى:

١- التناقض بين القديم والجديد.

٢- بين التفكير الخرافى والأسطورى من جهة، وبين التفكير العقلانى والعلمى من جهة أخرى.

٣- بين القيم القدرية والقيم المؤكدة لحرية الإرادة.

٤- بين الانتماءات المحلية التقليدية؛ السابقة لظهور الدولة، والانتماء للوطن

---

(١). أحمد أبو زيد، "هل تقوم ثورة علمية فى الوطن العربى"، مجلة العربى، الكويت، العدد ٥٦٨، مارس ٢٠٠٦م، ص٣٢.

(٢). نبيل على، "الفجوة الرقمية"، عالم المعرفة، الكويت- العدد ٣١٨- أغسطس ٢٠٠٥م، ص١٩٩-٢٠٠.

والأمة.

٥- تناقضات الخطاب السياسى: بين أحزاب المعارضة من جهة، والأحزاب الحاكمة من جهة أخرى؛ لانعدام رؤية وطنية وقومية مشتركة؛ تحدد الثوابت والأهداف والتطلعات الوطنية والقومية العامة. غير أن الاختلاف والتعدد يظل مطلوبا، ويعد شرطا ضروريا للتقدم، التعدد فى إطار الوحدة.

وهناك سمات أخرى تميز طبيعة تفكيرنا تكمن فى:

١- هزيمة نفسية وعدم الاعتزاز بالذات. حيث يسيطر الشعور بالنقص والعجز لدى الإنسان العربى، فلا يسلم بقدرتنا على الصمود والمواجهة. (على الرغم من أن المقاومة اللبنانية قد حطمت ذلك الوهم بالتفوق الصهيونى).

٢- عدم الاهتمام برموزنا الوطنية والقومية والتاريخية. كل ذلك نابع إما من الجهل بها؛ نتيجة لغياب التنشئة الفكرية التى تنمى الروح الوطنية والقومية، أو من طبيعة الصراعات السياسية التى تميزت برفض الآخر، وعدم القبول برأيه مهما كان على صواب، ففى تاريخنا المعاصر؛ لم يصنف الأفراد اعتمادا على معايير- ذاتية- عند تقييم أفكارهم ومواقفهم- بمعنى أن ننظر ونتعامل مع الفرد باعتباره شخصية مستقلة، لا يمثل أى فيئه ولا أية جهة أو منطقة، ولا يمثل قبيلة ولا طائفة- بل يمثل ذاته وقدراته، وحريته، ووطنه وأمته. بل كان التصنيف يعتمد على أسس متخلفة؛ مناطقية أو مذهبية أو سلالية، أو حزبية ضيقة الأفق. (وهى النظرة الموضوعية التى نعتبرها فى ثقافتنا صفة ايجابية).

٣- فلسفة التعليم. انحصرت فلسفة التعليم السائدة فى إعداد الإنسان من أجل تلبية احتياجات سوق العمل، وتم تجاهل البعد المعرفى والتنويرى للعلم،كما يتم إهمال البحث العلمى، الذى يعجل فى تقدم الإنسان العربى.

حيث اختزل الخطاب التعليمى دور العلم من جهة، والإنسان من جهة أخرى؛ فى تلبية احتياجات السوق، والحصول على وظيفة، وهذا الخطاب يتعارض تعارضًا مطلقًا؛ مع القيم السامية للعلم،ومع تطلعات الشاب؛ الذى يجد نفسه فى ظل هذا التوجه، أداة ووسيلة وليس غاية.

٤- سيطرة المجتمع على الفرد. فالمجتمع وفقا للفلسفة الراهنة هو الغاية-

والفرد وسيلة. وهذا الطرح يتجاهل حقيقة أن الأفراد هم صانعو التاريخ، ومبدعو كل شيء عظيم فى هذه الحياة. حيث تبدأ سياستنا التربوية والإعلامية والثقافية، من الموضوع والجماعة،وليس من الذات الفردية.

فالإنسان هنا أصبح وسيله وأداة لغاية أعلى منه؛ لأن الثقافة العربية لا تعترف بالاستقلال الذاتى للفرد، حيث ينظر إلية باعتباره جزءًا تابعًا؛ يرتبط بكيانات أعلى منه؛ فهو جزء من أنساق اجتماعية محلية تقليدية؛ وحزبية بعقليات قديمة تكبل الفرد، وتنزع عنه حريته واستقلاله، وتسخره لخدمتها. فالفرد لا يسأل عن مؤهلاته وقدراته وتطلعا ته الذاتية، ودوره الراهن والمستقبلى؛ بل يسأل عن انتماءاته إلى تلك الكيانات المتحجرة؛ فهى المعيار.

ماهيته قد رسمت من قبل؛ ليس له سلطة على مستقبله، ولا يحدد أهدافه؛ وقدراته، بل المجتمع هو الذى يخطط له، ويبرمجه، ويوجهه.

الإنسان هنا أداة، ووسيلة، يمكن استبداله بغيره؛ إن لم يحقق ما تريده المشيئة المجتمعية الموضوعية، بدلا من إعداده لذاته، وتنمية قدراته وطاقاته، ورعايته وحمايته من أعداء الحرية.

أخيرًا وهى النتيجة المنطقية لذلك التفكير: هو سيادة وهيمنة الوعى الجماعى- والكلى والموضوعية- التى تتعدد وتتساند معا من الماضى إلى الحاضر؛ لكبح جماح الإنسان العربى وتكبل حريته الفردية.

تؤدى تلك التناقضات إلى فقدان الإنسان العربى للتوازن النفسى والفكرى؛ حيث لا يجد هدفا وطنيا أو قوميًا عاما يوجه أفعاله وأهدافه الخاصة: ولا يجد مجالا لتحقيق ذاته وحريته؛ لأن المجتمع والسوق هما الغاية!! وهذه التناقضات الفكرية تفقده التوازن النفسى. وتخلق لديه إحساسًا باليأس وعدم الثقة بالذات و بالمستقبل. وهذا الفراغ الفكرى والتناقض يهيئ الشاب لتقبل الأفكار المتطرفة، هروبًا من الفراغ الفكرى الذى يهيمن عليه، وبحثاً عن إجابة للتساؤلات التى تعتمل فى ذهنه، ولم يجد لها إجابة فى الخطاب السائد تشده إلى المستقبل. فيتجه إلى الماضى.

عمق الإشكالية أننا نبدأ من فرضيه خاطئة ونسير سيرًا خاطئًا، ونصل إلى نتائج مدمرة فى حق شعوبنا، وأجيالنا ومستقبلنا. أن نجعل الذات الفردية وسيلة لقوى

موضوعية اجتماعية أعلى منها؛ هذه هى الإشكالية.

وتصورى يكمن فى تغيير الفرضية؛ أن نبدأ بتحرير الذات الفردية من سيطرة القوى الوهمية؛ ونحررها من تلك الأغلال وننمى قدراتها. وستكون النتيجة خروج المارد من الصخرة ومن الكهوف والسجون الموضوعية، إذا شعر هذا الفرد بأهميته ودوره الفاعل؛ سيكون مبدعًا ومنتجًا وعبقريا يعمل بأفعاله لتقدم المجتمع؛ حينما نضعه فى أولوية اهتماماتنا.

ثالثا: المظاهر السياسية للأزمة.

وإذا كان التناقض والتخلف فى الوعى يعد سمة مميزة لواقعنا الثقافى؛ فما هى أبعاده ونتائجه السياسية؟

أ- هيمنة الوعى المحلى والتقليدى فى تفكير وسلوكيات القوى السياسية العربية.

إن طبيعة تفكيرنا التقليدية والمتناقضة؛ قد انعكست على أفعالنا فى كل الأبعاد، ومنها البعد السياسى؛ ذلك أن الفعل الإنسانى لا يأتى إلا بعد الفكرة، فهو نتاج لهدف سابق يضعه الفاعل.

فعلى الرغم من أن القوى السياسية العربية، ترفع شعارات وأيديولوجيات تقدمية معاصرة؛ إلا أنها فى واقع الأمر ماتزال تحمل وعيا زائفا كراسب من أشكال الوعى التقليدى، السابق لوجود الدولة الوطنية، وهذا الوعى يتناقض مع الهوية الوطنية والعربية، مثل الطائفية والجهوية وغيرها. وقد أدى هذا الوعى الزائف إلى عدم فهم طبيعة العصر وطبيعة الصراعات السياسية الجديدة، ويؤدى أيضا إلى تشويه الأيديولوجيات السياسية التى ينادون بها، كل ذلك ناتج عن التناقضات الكامنة فى الفكر والممارسة، وعدم وضوح الرؤية لدى تلك القوى. والنتيجة أننا نتصارع حول قضايا قديمة، تجاوزتها الشعوب الأخرى!!

حيث تتجلى إشكالية التفكير السياسى فى هيمنة وتنامى الولاءات التقليدية المحلية السابقة لوجود الدولة والمجتمع السياسى الحديث. فقد لوحظ فى السنوات الأخيرة بداية ظهور تناقضات فى الوعى؛ ناتجة عن الخطاب السياسى للأحزاب القائمة؛ حيث أدت خلافاتها السياسية إلى تعميق النعرات الطائفية والمناطقية والعشائرية. إن عدم وضوح الرؤية لديها يعود إلى بنيتها التنظيمية الداخلية؛ التى يغلب عليها الطابع القروى

والمناطقى والعشائرى. هذه البنية تشوه الحياة السياسية للمجتمع الحديث، وتساعد على تفكيك الهوية الوطنية والقومية، وتتعارض مصالحها باستمرار مع الدولة الحديثة ومؤسساتها.

فالخطاب السياسى لتلك الأحزاب لا يعكس الرؤية الوطنية أو العربية العامة، بل يعكس رؤى ومطالب ضيقة، تعبر عن البنية التنظيمية التقليدية لتلك الأحزاب. فلا نجد فى خطاب الأحزاب والقوى السياسية العربية، أية توجهات لتنمية ثقافة وطنية أو قومية مشتركة؛ بقدر ما ينمى التناقضات والشكوك حولها.

لقد أدت "الاختلافات المعرفية و الأيديولوجية" بين القوى السياسية المختلفة إلى نتائج خطيرة أهمها:

١- عدم القدرة على تحديد طبيعة الهوية الثقافية الوطنية والقومية، وتشويه التراث والقيم الثقافية.

٢- بالإضافة إلى "غياب التراث الديمقراطى فى الحركة الوطنية والقومية السياسية، وعدم القبول بالآخر، وعدم الاعتراف بميراث السابقين، والسعى دائما لتدميره، كجزء من الصراع السياسى والثقافى، فكل طرف لا يعترف بثقافة الآخر مهما تحمل من قيم إيجابية وطنية"[١].

إن الخطر الذى يهدد شعوبنا العربية، هى الانتماءات التقليدية التى تسبق وجود الدولة والوطن؛ حيث يشكل التعصب للانتماءات المحلية القديمة؛ تعارضا تاما مع قيام الكيان السياسى الجديد، كما يتعارض ويتناقض مع الولاء للوطن الأكبر، ومع قيم عصرنا، ومع ما أنجزته البشرية من إصلاحات وثورات سياسية واجتماعية وفكرية لبناء الدولة- الأمة- ويعد التعصب لتلك الكيانات والتمسك بها على حساب الانتماء للوطن والدولة والأمة سببا جوهريا فى تمزقنا وتخلفنا الشامل؛ لأنه كما سبق يتضمن عودة إلى حالة الغريزة والطبيعة، والحياة مع القطيع ويتضمن التخلى عن دور العقل.

إذ ليس بإمكان المجتمع المحلى أن يتطور إلى مجتمع حديث إلا بتحطيم بنية علاقاته القديمة. ولن يتم ذلك إلا بتحديث وعى الشباب والتأكيد على أهمية الانتقال من الوعى بالانتماءات المحلية إلى الوعى بالانتماء إلى الوطن والمجتمع الحديث، الذى

---

(١) انظر هشام على، المثقفون اليمنيون والنهضة، مكتبة الإرشاد صنعاء، ط١، ٢٠٠٠م، ص١٥-١٧.

يتيح للأفراد تحقيق حرياتهم ووجودهم وتطلعاتهم المستقبلية؛ فى ظل كيان وطنى أو قومى أسمى من تلك الكيانات التى تكبل حرية الفرد، وتلغى شخصيته وتخلق لديه حواجز نفسية مع بنى وطنه وقومه ومع الإنسانية جمعاء. ولذا فإن الحلول المطلوبة لمواجهة تشظى المجتمع العربى فى المرحلة الراهنة، هو تكريس فكرة الانتماء والولاء للكيان الاجتماعى والسياسى الجديد، الذى يقوم على العقل، حيث يحل القانون والمواطنة محل العلاقات المحلية التقليدية.

لابد إذن من وضع صيغ ثقافية جديدة تعبر عن الحياة وفقا للعقل وليس للغريزة، للحياة ضمن كيان سياسى وليس ضمن مجتمع محلى ينتسب إلى طبيعة الثقافة التقليدية.

ب- النزعة الواحدية لدى الأحزاب السياسية العربية.

يعد هذا العامل من أهم الأسباب فى عدم الارتقاء بالعملية الثقافية و السياسية فى الوطن العربى: فالقوى السياسية العربية ما تزال تفكر بعقلية شمولية؛ لا تعترف بالتنوع والتعدد والاختلاف والحوار، ولم تستوعب فكرة الحرية والديمقراطية باعتبارها منظومة متكاملة، فكل تيار ينظر للآخر باعتباره عدوًا وخصما ينبغى إقصاؤه، وعدم التفكير فى التعايش معه أو الاعتراف به، ولا يسمح للرأى الآخر بالظهور، حتى فى إطار البنية التنظيمية للأحزاب السياسية نفسها. وكل فريق يتصور أنه وحده مالك الحقيقة، وما عداه زيف وباطل وكفر. ولا مجال للحوار بين القومى والأصولى والليبرالى؛ وقد أدى ذلك التفكير إلى تنامى الصراعات وتجددها. والمستفيد من ذلك الوعى المتخلف هى القوى الاستعمارية التى تسخر من طبيعة تفكيرنا ونظرتنا للعالم، وتسعى لتنمية هذا الوعى وتكريسه لخدمة مصالحها! وتعد النزعة الواحدية التى لا تعترف بالتعدد والحرية امتدادًا للثقافة التقليدية أيضًا:

جـ- الصراع المتجدد على السلطة، وليس على البرامج والأهداف العامة الوطنية والقومية.

يشكل هذا العامل خطرًا حقيقيا على الاستقرار السياسى فى البلدان العربية، قد جاء نتيجة للخلط بين الأهداف والغايات من جهة؛ وبين الوسائل من جهة أخرى.

فلم تتمكن القوى السياسية العربية من أن تفرق بين الأهداف الوطنية والقومية

من جهة، وبين وسائل تحقيقها من جهة أخرى.

فإذا كان الهدف الأسمى- كما نعتقد- هو الحرية والوحدة والتقدم، فإن الديمقراطية والسلطة تعد وسائلا لتحقيق تلك الأهداف السامية. إلا أن جميع القوى السياسية العربية تجعل من الوسائل أهدافًا أساسية، فتحولت السلطة من وسيلة؛ إلى هدف رئيسى لها!!

ونتيجة لذلك الفهم الخاطئ؛ ظلت القوى السياسية تتصارع على السلطة؛ متجاهلة الأهداف الوطنية والقومية، ومتجاهلة ما يحتاجه الشعب والأمة، من حرية ووحدة وتنمية شاملة اقتصادية وثقافية وتعليم وصحة...الخ.

كما تتجاهل هذه القوى؛ الأخطار والمؤامرات المتجددة على الأمة العربية من قبل القوى الاستعمارية والصهيونية؛ التى تدرك هذا التفكير الساذج لدى التيارات السياسية العربية، وتدرك التناقضات والولاءات والهويات المحلية والتقليدية، فتسعى لإحيائها من جديد، بعد أن كنا قد تجاوزناها فى معظم الحالات.

د- إغفال شبه مطلق لإشكالية الحرية الفردية، فى ثقافتنا السياسية.

لأن كل فريق يتصور الحرية حقا ومطلبا له دون غيره، فالقوى السياسية المعارضة ترفع شعار الحرية، وتستخدمها سلاحا لإسقاط الحاكم، ولو أدى بها ذلك إلى الاستعانة بالمستعمر، وما أن تصل هذه القوى إلى السلطة حتى نجدها تمارس القمع والقتل ضد خصومها السياسيين، ولا تمنحهم الحرية، ولا تعترف بحقهم فى الوجود. وهذا ناتج أيضًا عن هيمنة الثقافة القديمة التى لا تعترف بالحرية والتنوع.

والأمثلة كثيرة: ففى العراق اتهم النظام القومى السابق بالدكتاتورية، وما أن وصلت المعارضة- المدعومة من المستعمر الأجنبى- إلى السلطة، حتى بدأت ترفع شعارا دمويا لم تعرف الشعوب نظاما مستبدا مثله.حيث رفعت شعار (اجتثاث البعث) فمارست هذه القوى استبدادا ووحشية أكثر مما كانت تشكو منه.

وكذلك الحال مع الأخوة الأكراد. فقد كانوا يشكون من تهميش هويتهم، لصالح الهوية العربية، على الرغم من أنهم، قد حصلوا على الحكم الذاتى فى ظل النظام العراقى القومى السابق. وما أن وصلوا إلى الحكم حتى وجدناهم يمارسون أبشع أنواع القهر والتنكيل بالعرب، وطردهم من ديارهم،فى كركوك، وغيرها، ومارسوا أشد مما

كانوا يشكون منه.

فالمعارضة تتهم السلطة بالفساد، والديكتاتورية، ولكنها حين تصل إلى السلطة تمارس أبشع أنواع الفساد والقمع للحريات الفردية.

هذا يؤكد أن طبيعة تفكيرنا متناقضة مع سلوكياتنا. وأن التفكير التقليدى هو الذى يسير حياتنا السياسية وغيرها ويعد العامل الحاسم فى تفاقم أزمات الأمة العربية.

هـ- غياب رؤية وطنية أو قومية عامة لدى الأحزاب والقوى السياسية العربية.

والجزئية. ويؤدى ذلك إلى تنامى الصراعات الداخلية، واستغلالها وتنميتها من قبل القوى الخارجية؛ لأن القوى السياسية لم تتمكن من تحديد الأهداف والمصالح المشتركة للدولة الوطنية أو للأمة العربية؛ لكونها ما تزال تحمل الأهداف الجزئية التقليدية، ولم تتمكن من تجاوزها، إلى الوعى بالأهداف الوطنية أو القومية.

ثم إن بعض القوى السياسية العربية قد حملت أيديولوجيا تتعارض وتناهض الفكر القومى، الذى يجسد هويتنا العربية. وقد تمثلت فى تيارين أساسيين هما:

أ- التيار الماركسى الأممى، الذى غلب البعد الاجتماعى والصراع الطبقى، والأهداف الأممية؛ على حساب التحرر الوطنى والوحدة العربية. ولم يكتف بهذا التوجه؛ بل ظل يمارس حملة فكرية وسياسية، وعسكرية ضد التيارات القومية ممثلة فى: حركة القوميين العرب، والبعث، والاتجاه القومى للرئيس/ جمال عبد الناصر.

ب- التيار الدينى الأصولى، الذى يرى فى العروبة والفكر القومى كفرا وجاهلية.

وقد أسهم هذان التياران فى إعاقة حركة النهوض العربية، حيث وقفا ضد النظام القومى لعبد الناصر، وضد النظامين القومين فى العراق وسوريا.

و- طبيعة التفكير الأصولى.

يمثل هذا التفكير الثقافة التقليدية بشكل مكثف، وهو أشد مظاهرها جمودًا وتصلبًا.

فقد ظهرت اتجاهات أصولية متعددة فى تاريخنا السياسى المعاصر؛ تتميز بالجمود والتعصب وتتجه لتكفير الآخر، ولا تعترف بالتنوع الفكرى؛ وتدعو إلى

الانغلاق على ثقافة العصر. وقد أدت هذه التيارات الأصولية- التى تستخدم الدين وسيلة لأهدافها الخاصة- إلى:

١- إثارة الصراعات المذهبية التى لم تحدث فى كل التاريخ العربى الإسلامى، فما كان يحدث فى الماضى هى اجتهادات بين الفقهاء والعلماء، لا يمتد تأثيرها على عامة الناس، ولم تكن فى يوم من الأيام سببًا فى الصراعات السياسية، ولكن بعض القوى أو الشخصيات السياسية قد سعت إلى استخدامها كوسيلة للتخلص من الخصوم فى الصراعات السياسية.

٢- إن النظرة المتصلبة لهذه القوى قد أدت أيضا إلى كراهية العالم لهذه الأمة.

٣- لم تقم هذه الجماعات بأى فعل يخدم الإسلام أو الأمة العربية. بل نجدها ترى فى الإيمان بالوطن والعروبة كفرا وجاهلية، وتناسوا أن الأمة العربية هى حاملة الرسالة الإسلامية. وأن اللغة العربية هى لغة القرآن الكريم.وأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) هو "نبى من هذه الأمة".

٤- لم تقف هذه القوى إلى جانب قضايانا فى فلسطين أو العراق أو لبنان؛ بل وقفت لتحقيق المخطط الأمريكى فى أفغانستان والبوسنة والهرسك وغيرها!

٥- ساهمت هذه التيارات الأصولية فى تشويه الإسلام والقيم الأخلاقية التى دعا إليها. وساهمت فى تفكيك الأسرة وقيمها. حيث ظهرت الفتاوى الإباحية؛ تحت أسماء متعددة مثل: زواج المسيار، وزواج المتعة، والزواج العرفى...الخ.

٦- وقفت هذه التيارات المشبوهة ضد كل الأنظمة الوطنية والقومية فى الوطن العربى. (فقد وقفت ضد النظام القومى لعبد الناصر، والنظام القومى فى الجزائر، وفى العراق، وفى سوريا).

وفى اليمن نجد أن هذا التيار الأصولى، بدأ فى التآمر على النظام الوطنى ذو التوجهات القومية فى اليمن. ولم تتعظ هذه القوى، ولم تدرك أنها تستخدم وسيلة لتفكيك أمتنا على أسس مذهبية ودينية.

وما يجرى من حرب وإبادة شاملة على لبنان، وتآمر وحصار على سوريا؛ الدولة العربية ذات النهج القومى، هو نتيجة لطبيعة تفكيرنا بالدرجة الأولى. حيث تتحالف القوى التقليدية والرجعية صراحة مع أمريكا وحلفائها لإسقاط النظام السورى،

وحصار المقاومة اللبنانية، مرددة الذرائع الاستعمارية، ولا تدرك هذه القوى أن المستعمر لن يسمح لها فى البقاء فى السلطة، أو بالوصول إليها إن كانت أحزابا معارضة؛ ولكنها تستخدم ذريعة ووسيلة لتحقيق الأهداف الاستعمارية، كما حدث أن استخدمت التيارات الأصولية لتحقيق الإستراتيجية الأمريكية فى: أفغانستان والبوسنة والهرسك فى أوربا الشرقية، وفى الشيشان.

فهم بهذا يسعون إلى تشويه ديننا الإسلامى الذى دعا إلى الوحدة، وإلى الدفاع عن الأوطان، وليس إلى تفكيكها مذهبيًا، فالتفكيك هو الوسيلة الفاعلة للقوى الاستعمارية فى سعيها للهيمنة على الشعوب الأخرى ومنها أمتنا العربية.

ليس الاعتراض هنا على وجود هذا التيار السياسى؛ بل على طبيعة تفكير هذه القوى وعلى أدائها السياسى الذى لا يخدم أهدافنا المستقبلية، حيث يفترض بالتيار الأصولى أن يسهم فى نهضة الأمة وفى الدفاع عن وجودها ومصالحها، لكونه يشكل جزاء فاعلا من الحركة السياسية العربية الراهنة.

رابعا: دور العامل الخارجى فى الأزمة التى تعانيها الأمة العربية.

إن التداخل والترابط الجدلى بين الذاتى والموضوعى، بين الداخلى والخارجى، يعد أمرا مؤكدا، ولذلك لايمكن إغفال دور العوامل الخارجية للازمة التى تعيشها أمتنا العربية.

ويتمثل هذا الدور فى الهجمة الثقافية الغربية التى تهدف إلى هدم الثقافة العربية[1]، وتفكيكها؛ ليتسنى لها بعد ذلك الهيمنة على وجودنا ومستقبلنا، لأن تفكيك الهوية الوطنية يؤدى إلى ضعف الدولة وشل مؤسساتها؛ فتكون عاجزة أمام التشرذم الداخلى، والإطماع الخارجية.

لقد توقف نمو الحضارة العربية الإسلامية؛ التى تعد من أهم الحضارات الإنسانية، حيث كان لها إسهاما مشهودا له فى التاريخ الإنسانى؛ توقف هذا النمو منذ احتلال بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨م؛ وحتى احتلالها مرة أخرى فى أبريل ٢٠٠٣م على يد المغول الجدد، الأمريكيين.

---

(١). على وطفة، مصدر سابق، ص٢٨.

فكلما حاولت أمتنا العربية بناء قوتها الذاتية، وتماسك هويتها القومية، تتعرض لمؤامرات مستمرة من قبل القوى المهيمنة على مسرح التاريخ الحديث والمعاصر، فقد شكلت القوى الاستعمارية عاملا أساسيا فى إعاقة أمتنا، فى محاولاتها المستمرة للنهوض، بالإضافة إلى عوامل داخلية، يكون لها الأثر الأكثر سلبية فى إعاقة نهوض أمتنا العربية وتقدمها.

لقد شهد الوطن العربى فترتين من فترات النهضة القومية فى تاريخه الحديث، النهضة القومية الأولى؛ حدثت فى مواجهة الاضطهاد القومى الذى تعرض له العرب من قبل القومية التركية.

والنهضة القومية الثانية؛ التى لا تزال تطوراتها متواصلة؛ انطلقت فى مواجهة الاضطهاد القومى الذى تعرض له العرب من قبل الحركة الاستعمارية الغربية، التى اجتاحت المنطقة من بداية القرن التاسع عشر الميلادى حتى الآن؛ وخلال هاتين الفترتين من فترات النهوض القومى.

كان التوجه السياسى للقوى العربية الصاعدة يتركز حول: الاستقلال الوطنى من جهة، وإقامة الكيان السياسى الموحد للأمة العربية من جهة أخرى[1].

فقد تمكنت معظم الأقطار العربية فى مرحلة النهوض القومى، من بناء الدولة الوطنية الحديثة التى شكل وجودها تجاوزا للكيانات المحلية التقليدية، التى يتعارض وجودها مع الدولة الحديثة وكدنا نحاول الانتقال إلى مراحل متقدمة، حيث يشكل بناء الدولة الوطنية انجازا أساسيا ومقدمة ضرورية للكيان السياسى للأمة العربية الواحدة. إلا أن الطابع القطرى الضيق قد تغلب على مشروع الكيان السياسى العربى بفعل التوجهات ضيقة الأفق من قبل القوى السياسية فى الداخل، بالإضافة إلى ضعف الحركة القومية العربية نتيجة للحصار الذى تتعرض له من قبل: التيارات الماركسية الأممية التى تعارض الفكر القومى، والتيارات الأصولية الدينية، وهى الأكثر خطورة؛ لأنها ترفض تماما الفكرة القومية، وهى أكثر تواجدا وتأثيرا الآن، بعد انحسار المد الأممى، هذا من جهة، ومن قبل القوى الاستعمارية؛ التى سعت إلى تفكيك الكيانات

---

(١). مجدى حماد، "جامعة الدول العربية"، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٩٩، ديسمبر ٢٠٠٣- يناير ٢٠٠٤م، ص١٣.

الوطنية القطرية من جهة أخرى. "فقد سعى الاستعمار الغربى إلى ترسيخ النزعة القطرية والهوية المحلية. كما سعى إلى إضعاف الفكرة القومية والهوية العربية، وشجع دعوات مشبوهة، كالفينيقية والفرعونية والبربرية، وغذى الخصوصية القطرية بمصوغات بعضها من الماضى البعيد، وبعضها من الماضى القريب، وبعضها من الطبيعة والثروة، وبعضها من الملامح الاجتماعية والنفسية[1].

إن القوى الاستعمارية وهى تراقب تلك التحولات فى مشروع النهوض العربى؛ على الرغم من بطئها وتعثرها. عادت لإجهاض ما تحقق، وما هو فى طور التشكل. كما حدث فى العراق. ويحدث الآن فى لبنان؛ تنمية وتعميق التناقضات الثانوية الداخلية، بتحويلها إلى تناقضات وصراعات أساسية وجوهرية.

إن تلك الإنجازات التى حققتها الثورات العربية تعترضها الكثير من الأخطار والأزمات التى تعرقل سيرها التقدمى؛ خصوصا فى هذه المرحلة التاريخية بالذات.

حيث تسعى القوى الاستعمارية إلى إعاقة نمونا وتفكيك دولنا الوطنية؛ بتشجيع بعض القوى السياسية فى بلداننا؛ للخوض فى قضايا وإشكالات لا تنتمى إلى عصرنا. كما تسعى إلى تفكيك هويتنا الوطنية والقومية، بإحياء الانتماءات التقليدية، المذهبية والعرقية والمناطقية، لتحطيم النظم العربية ذات التوجه الوطنى والقومى والتى تمتلك رؤية ومشروعا واضحا للمستقبل؛ لقد حاول الآخر إجهاض تقدمنا لكى تظل له السيطرة والسيادة واحتكار العلم، وما غزو العراق إلا واحدا من تلك الشواهد، لإجهاض التجربة العراقية الساعية نحو التقدم والقوة، التى كانت ماثلة للعيان.

كما أجهضت التجربة الجزائرية من قبل، هذا البلد العربى الذى كان يستعد للدخول ضمن الدول الصناعية، لأن نظام جبهة التحرير الجزائرية كان يمتلك رؤية واضحة للمستقبل.

وسوريا التى تمتلك رؤية قومية للتقدم والتحرر والمقاومة؛ وهى تقف فى وجه المؤامرات الصهيونية والاستعمارية بقواها الذاتية، ما تزال محاصرة لأكثر من نصف قرن.

والمخجل أن نجد من أبناء امتنا العربية من التيارين الأصولى واليسارى من

---

(١). مجدى حماد، مصدر سابق، ص ١٤.

تتطلى عليه الخديعة والذرائع الاستعمارية؛ يدافعون عنها باعتبارها حقائق، حيث يعتقد البعض أن أمريكا جاءت لتمنحهم الحرية والديمقراطية، فقد ردد هؤلاء الشعارات والذرائع الاستعمارية ضد النظام القومى العراقى باسم الحرية؛ تمهيدا لاحتلال العراق.

ولم يتعلموا من الدرس العراقى؛ حيث نجدهم الآن يرددون الذرائع الاستعمارية نفسها على سوريا الصمود وشعبها العظيم؛ ونظامه القومى؛ الذى يتعرض للمؤامرات المستمرة، وضد لبنان الشقيق الذى يتعرض لمؤامرات استعمارية وصهيونية؛ تحاول إعادته إلى الحرب الأهلية، وتفكيك كيانه الوطني، إلى كيانات طائفية هزيلة، بعد أن كان قد تجاوز تلك الحالة بفعل الوعى الوطنى والقومى للمخلصين من أبنائه، وبفعل الدعم المباشر لسوريا التى قدمت الكثير من التضحيات من أجل استقلال لبنان وسيادته.

"فعلاقة العولمة بالهوية الوطنية والقومية عويصة فى حد ذاتها. فمن ناحية تحاول العولمة ضم الهويات بعضها إلى بعض؛ من خلال تقنيات الاتصال، للقضاء عليها باعتبار أنها يمكن أن تكون عائقا لتطورها إن لم تصبح نقطة انطلاق للصمود ضدها؛ ومن ناحية أخرى، قد تنمى بعضها (كهوية الأقليات) لتشكل مناطق مؤزمة فى العالم تشعل فتيلها متى اقتضت الضرورة الاستراتيجية لذلك"[1].

هذا ما حدث فى العراق، فلم يتم غزوه، إلا بعد ضمان تنمية وتعميق الخلافات الداخلية الثانوية، وجعلها تناقضات أساسية: تم استخدامها أدوات وذرائع لاحتلال وطن كان قويا وموحدا. ويمتلك رؤية للمستقبل واضحة. فما طبيعة العلاقة بين هويتنا الوطنية والقومية من جهة، والهوية الغربية والأمريكية من جهة أخرى؟

تشهد العلاقة الراهنة بين هويتنا الوطنية والقومية من جهة، وبين الثقافة الغربية والأمريكية على وجه الخصوص، حالة من الصراع من طرف واحد هو الأقوى ضد الطرف الأضعف. حيث تقوم الفلسفة السياسية الأمريكية على فكرة الصراع كوسيلة لتقدمها وتجاوز التناقضات الداخلية.

العدو الخارجى وفقا للفلسفة الأمريكية، يعد ضرورة لتماسك الهوية الأمريكية من جهة، وتعميمها على العالم من جهة أخرى. وهذا ما أكده صموئيل هنتنجتون فى

---

(١). فتحى التريكى، الحداثة وما بعد الحداثة، حوارات لقرن جديد، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ط١، ٢٠٠٣م، ص١٩٣-١٩٤.

كتابه (صدام الحضارات) حيث يؤكد فيه على أن الصراعات الدولية القادمة ستكون بين الهويات الثقافية حيث يقول[1]: "إن الثقافة والهويات الثقافية والتى هى على المستوى العام هويات حضارية، هى التى تشكل أنماط التماسك والتفسخ والصراع فى عالم ما بعد الحرب الباردة".

ويرى أن: الثقافة الكونية المعاصرة تتميز بكونها متعددة الأقطاب ومتعددة الحضارات، و أن ميزان القوى يتغير باستمرار لصالح الحضارات الشرقية. و أن طموح الغرب فى تعميم ثقافته، وجعلها ثقافة عالمية، يضعه (هذا الطموح) "بشكل متزايد فى صراع مع الحضارات الأخرى، وأخطرها مع الإسلام والصين، ويؤكد على أهمية التحالف الاستراتيجى بين الغرب وأمريكا، فهى فى نظره الضامن الحقيقى لبقاء الغرب، وهويته التى تتبناها الولايات المتحدة الأمريكية"[2]. لم يكتف هنتنجتون بهذا التأكيد لصراع الثقافات، بل نجده بعد أن بدأت تلوح فى الأفق ملامح هذا الصراع بعد احتلال أميركا لأكبر بلد عربى؛ هو (العراق)، أخرج كتابا جديدا يحمل عنوان (من نحن؛ تحديات الهوية الأمريكية) حيث يرى فيه احتمال تعرض الهوية الثقافية الأمريكية للتشظى، نتيجة للهجرات المتزايدة التى تظل مرتبطة بهوياتها القديمة، يساعدها فى ذلك، وسائل الاتصالات الحديثة، بالإضافة إلى تزايد نفوذ المهاجرين من أمريكا اللاتينية، الناطقين بالأسبانية، ويرى أن الوسيلة الفاعلة لتجنب ذلك التمزق فى الهوية الأمريكية؛ هو الصراع الخارجى، مع الحضارات الشرقية ومنها، الثقافة العربية الإسلامية. ويقرر أن الإسلام هو وحده فقط المنقذ للهوية الثقافية الأمريكية؛ (بعداء الإسلام لأمريكا) سيعمل ذلك على تماسك الشعب الأمريكى حول كيانه السياسى الموحد. حيث يساعد هذا العداء لتطوير الثقافة الأمريكية وتماسكها وفرضها على المستوى العالمى[3].

وما أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها إلا ترجمة عملية للإستراتيجية الأمريكية القائمة على الصراع الخارجى؛ باعتباره وسيلة فاعلة لتجاوز التناقضات الداخلية.

---

(١). هنتنجتون، صموئيل، صدام الحضارات، ترجمة طلعة الشايب، كتاب سطور، ط٢، ١٩٩٢م، ص٣٧.

(٢). هنتنجتون، المصدر السابق، ص٣٧.

(٣). INFO@BALAGH, COPYRIGHT,ALBLAGH.COM.

"ولو تمعنا قليلا فى ظاهرة علاقتنا بالغرب، لوجدنا أنها تدخل ضمن توحد الغرب فى تدبير شئون العالم، هذا التوحد الذى نتج عن إرادة الهيمنة المطلقة أصبح اليوم أكثر تصلبا؛ يستبعد الأخر ويبنى تصورا ذا بعد واحد للحياة والفكر"[1].

وهذه عودة للنزعة الشمولية والواحدية؛ التى حاربها الغرب نفسه، الذى قامت ثقافته المعاصرة على أساس التعدد فى إطار الوحدة الوطنية أو القومية؛ إلا أنهم طوروا ثقافتهم على ذلك الأساس، ولم يسمحوا للشعوب الأخرى بتنمية هوياتها وثقافتها الوطنية والقومية، بل نجدهم يشجعون على نمو الهويات المحلية المتخلفة داخل الشعوب ذات الهوية الكبرى الموحدة. فعمقوا تلك الثقافات العرقية والطائفية؛ لتفكيك المجتمعات وتفجيرها من داخلها؛ بغية السيطرة عليها واحتوائها.

ولذا لابد من تحصين أمتنا بتعميق روح الولاء لها؛ وبتنمية ثقافة وطنية وقومية؛ تربى فى النشء حب الوطن والأمة؛ والاستعداد للذود عنها.والعمل من أجل تقدمها وازدهارها؛ ولن يتم هذا إلا عبر: مناهج التربية الوطنية فى كل المراحل الدراسية؛ وضمن توجه شامل يشمل الخطاب: الثقافى الإعلامى والدينى والسياسى أيضًا. على أن تلتزم كل الأحزاب والتجمعات السياسية والمهنية بهذا المبدأ، تحديد الثوابت الوطنية والقومية؛ التى نتفق حولها جميعا، وجعل الخلاف يتمركز حول كيفية بناء أمة قوية ومتقدمة.

"إن استمرار الأزمة هو أكبر دليل على انعدام البديل أو ضعفه، وليس البديل المقصود الجانب السياسى منه؛ وإنما المشروع الثقافى والسياسى الذى أعطت النهضة والحركة القومية العربية الحديثة نماذج سابقه منه، وهو بهذا المعنى ليس إلا الرد الجديد والشامل الفكرى والعملى على الأزمة التاريخية التى يعيشها الإنسان العربى المعاصر[2].

---

(١). فتحى التريكى، مصدر سابق، ص١٩١.

(٢). برهان غليون، مصدر سابق، ص ١٣.

خامسا: التجـاوز، رؤية للمستقبل

إن النهوض التجاوز لهذه الأزمة، لايتم إلا بتوفر الشرط الأكثر جوهرية ونعنى به، امتلاك رؤية وهدف وطنى أو قومى واضح للمستقبل، فبدون تحديد الأهداف أو الفلسفة العربية العامة، لا يمكن لهذه الأمة أن تتجاوز أزمتها الراهنة.

ماذا نريد؟ ما هى أهدافنا الوطنية والقومية؟ إذا أدركنا ذلك يمكن تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف؛ إذ لابد من أن نحدد بالضبط ماهى أهدافنا ومطامحنا التى نريد أن تكون محققة فى مستقبلنا المتطور، أوانها آخذة فى التحقق بصورة لا تقبل التراجع ولا الانتكاس. "هناك هدفان أساسيان: مترابطان ومتكاملان يشدان العرب شدًا؛ ويشدان شعوبا أخرى إلى المستقبل هما: (التقدم والوحدة)".

١- التقدم: ما يريده العرب وكل الشعوب المستضعفة، هو اللحاق بالركب العالمى المتقدم، ركب الدول الصناعية والأمم الراقية القادرة على حفظ كيانها والمساهمة فى تقدم الحضارة البشرية ماديا وروحيا. وهذا هو مضمون مطلب (التقدم).

٢- الوحدة: أما المطلب الثانى، أعنى الوحدة، فهو يكتسب عند العرب خصوصية متميزة. لأن الوحدة تعد شرطًا للتقدم من جهة، وشرطًا لتحقيق توازنهم النفسى والاجتماعى من جهة أخرى. إن التقدم على صعيد العلم والثقافة والصناعة والاقتصاد...الخ، مشروط فى الوطن العربى بقيام نوع من الوحدة بين الأقطار العربية يجعل قدراتها البشرية والاقتصادية تتكامل فى برامج للتنمية شاملة وبعيدة المدى[١].

٣- الحرية الفردية: غير أن التقدم والوحدة لا يتحققان إلا بتوفر الشرط والمطلب الأساسى؛ وهى الحرية الفردية؛ فالحرية الفردية هى الهدف الأساس للإنسان، وهى رافعة النهوض والتقدم والوحدة والقوة. وبالتالى فإنها تعد الشرط والمطلب الأساسى الأكثر أهمية.

إن الدعوة لتحرر الفرد لا تعنى تجاهل المجتمع، بل تعنى تحررا شاملا لكل أفراد المجتمع ليكونوا قوى فاعلة.

---

(١). محمد عابد الجابرى، إشكالية الفكر العربى المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط٣، ١٩٩٤م، ص٧٨.

يقول حسن حنفى: "بدأ الغرب بالأنا أفكر وانتهى بالأنا موجود"[1]. حيث تحرر الإنسان الغربى وحقق الإمكانيات الكامنة فيه، بتحرره من العبودية الموضوعية، ويتساءل ونحن معه: "هل يمكن للأمة العربية أن تحدد لها بداية؟".

وأرى أن البداية ينبغى أن تكون هى الذاتية نحررها من العدو التاريخى للإنسان، الموضوعية تعد هذه البداية البيان الأول لفلسفة المقاومة، والمبدأ الأول لفلسفة الغد نؤكد من خلالها أن الإنسان هو الغاية والهدف، وهو المسؤل عن ذاته وعن الآخرين وعن العالم. نحرره من الأسوار والقلاع والسلاسل الموضوعية؛ يبدأ الفعل من الذات ويعود إليها: نقاوم ذاتنا الموضوعية، لتحرير ذاتنا الفردية، هذه هى البداية كما اعتقد.

-البداية هى الانفصال والانشقاق والتمرد والمقاومة لما هو سائد؛ بنقده وتجاوزه، وتقديم رؤى جديدة؛ نحقق حلمنا بالتقدم والارتقاء والانفتاح على الآخر.

٤- تجاوز الوعى التقليدى: وللخروج من وضعنا الراهن وتجاوزه، فلابد أن نحدث القطيعة مع الوعى التقليدى، ومع الماضى الذى يهيمن علينا بمشكلاته وصراعاته، وينبغى تحطيم ما يعرقل حرية الفرد وتحديد عناصر المقاومة وتفعيلها.

حيث ندعو إلى فلسفة للحرية (وللمقاومة)؛ تحرر الذات الفردية العربية، وتمجد القوة ورموزها، وتوجه معاول الهدم لكل ما ترسب فى وعينا من قيم الضعف والاستكانة. فليس للشعوب العربية غير فلسفة فردية؛ تمجد الذات، وتبرز إمكاناتها وعوامل انحطاطها، وتخلفها، تقدم لها الفؤوس للهدم وتمدها بالأدوات الجديدة لبناء المجتمع الحديث؛ هذا ما تحققه فلسفة الحرية الفردية التى أدعو إليها.

٥- الدولة والكيان السياسى الجديد: ولكن الحرية الفردية إذا تركت دون كيان ينظم العلاقة بين الإرادات الفردية الحرة؛ فإنها تتحول إلى الفوضى، ولذا لابد من توفر الشرط الأكثر أهمية وجوهرية لتحقيق الحرية والوحدة والتقدم؛ إنه الدولة الوطنية، والكيان السياسى الوطنى، باعتبار أن ذلك يعد ركيزة أساسية لتحقيق الحلم العربى فى الحرية والوحدة والتقدم والقوة. حيث يستحيل تحقيق الوحدة القومية ونحن

---

(١). سارتر، تعالى الأنا موجود، ترجمة حسن حنفى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٧م، من تصدير المترجم.

ممزقين ومتخلفين على المستوى الوطنى، فبناء الذات الوطنية يعد شرطا جوهريا، لبناء الذات القومية. وبناء الدولة الوطنية يعد مقدمة ضرورية لبناء الكيان السياسى العربى الموحد.

فالحل فى التجاوز الحقيقى للأزمة التى تمر بها أمتنا العربية؛ يكمن فى تجاوز الأسباب التى ذكرناها سابقًا وفى:

- تحديد الأهداف العامة: الحرية والوحدة والتقدم.

- تنمية التفكير العلمى، وإحداث القطيعة مع أسلوب التفكير التقليدى، والتمييز بين الوعى التقليدى والوعى الحديث.

- تنمية الثقافة الوطنية والقومية.

- تنمية ثقافة الحوار، والتعدد فى إطار الهوية العربية الواحدة.

- والتركيز على الحوار، بين. التيارات القومية والدينية،والليبرالية، فالعروبة هى حاملة لواء الإسلام،البحث عن القواسم المشتركة وتحديد الأهداف الوطنية والعربية العامة. بدلا من أن يستغل التيار الدينى ضد التيار القومى العربى أو العكس.

إن المشروع الذى يحقق لهذه الأمة النهوض والارتقاء والتحرر والوحدة؛ هو المشروع الثقافى؛ الذى يعجل بتحديث الوعى، ويعزز الثقافة القومية العربية، باعتبار أن العروبة تعد العنصر الأكثر جوهرية للهوية العربية، والعنصر الأشد توحيدا للعرب مسلمين ومسيحيين. إنها المبدأ والحقيقة التى لايمكن الاختلاف حولها.